دور المفكر الجزائري عبد الحميد بن باديس في مغاربية الفكر والثقافة والهوية

د. عبد الكريم بوصفصاف*

لقد كان المصلح الجزائري الشيخ عبد الحميد بن باديس من أكبر الوحدويين المغاربيين فكرا وثقافة وهوية، بالرغم من أن بلدان المغرب العربي الثلاث، المغرب والجزائر وتونس كانت خاضعة كلها للاستعمار الفرنسي، ولها حدود سياسية معينة تفصل كل واحدة عن الأخرى، ومع ذلك فقد كانت أعماله العلمية والسياسية والأدبية والتاريخية كلها تصب في البعد المغاربي.

وإذا كان المرء لا يقف متسائلا عن معنى الفكر والثقافة في المغرب العربي، فقد يتساءل عن ماهية الهوية المغاربية التي دعا إليها المفكر الجزائري بين الحربين الكونيتين.

ترى ما هي هذه الهوية؟ هل هي الهوية الثقافية؟ أم هي الهوية الفردية؟ أم هي الهوية الوطنية أم أنها الهوية السياسية؟ ثم لماذا ظهرت فكرة الهوية الجزائرية والهوية التونسية والهوية المغربية والهوية الليبية والهوية الموريطانية ثم الهوية المغاربية في الفترة الاستعمارية وما بعدها لم تظهر من قبل؟

للهوية صورتان متميزتان: صورة عامة وصورة خاصة، والنظرة الأولى لهوية الكائنات الحية تبرز عدة أشكال متميزة للهوية، ولكن النظرة الفاحصة لهذه الكائنات في مسألة الهوية تمكن الملاحظ من تصنيفها في قوالب صورية محددة، فيقال: "هذا إنسان، وهذا حيوان... أو محمد وخالد أو فيل وغزال" وهذا التصنيف يؤكد لدينا أن هناك وحدة إنسانية تجمع بين عنصري النوع الأول ووحدة حيوانية تجمع بين عنصري النوع الثاني ولقد اصطلح علماء المنطق على تسمية علاقة النوع الأول بالهوية والماهية، والهوية مقولة تعبر عن تساوي موضوعات وتماثل ظاهرة ما مع ذاتها أو تساوي موضوعات عديدة، فالموضوعان أ وب يكونان متطابقين من حيث الهوية.

إذا كانت كل الصفات والعلاقات التي تميز (أ) مميزة أيضا للموضوع (ب) والعكس بالعكس[1].

* أستاذ بقسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري - قسنطينة.

والهوية بالنسبة للإنسان لا تشتمل على المشخصات الحسية فحسب، بل تتعداها إلى الخصائص الفكرية والعقدية بذلك لأن الناس مهما تشابهوا في خصائصهم الفكرية فإن كل فرد لا بد أن يكون متميزا عن غيره بكثير أو بقليل كما أن الفرد قد تكون له تصورات عقدية ومذهبية خاصة لا يشاركه فيها أحد فذلك كله يدخل في مفهوم الفردية[2].

أما إذا اكتسب كيانا مغايرا لكيان الفرد مما يقتضي أن تكون هويته أمة مختلفة عن هويته فردا في عناصرها وفي أحكامها من التغيير والثبات[3].

أ – الهوية الثقافية:

بناء على رأي الباحثين في موضوع الثقافة والهوية، فإن مشكلة الهوية الثقافية لا تعني في الاصطلاح المجتمعات البدائية التي تتكون من تجانس عرقي، لأنه يبقى في اعتقادهم أنها وحدها التي تمثل النوع البشري، «إن الإنسانية تتوقف عند حدود القبيلة والجماعة اللغوية وفي بعض الأحيان عند حدود القرية»[4].

فعند هذه القبائل لا يطرح مشكل الهوية الثقافية، لعدم وجود الإحتكاك بالآخرين والاعتقاد السائد بأنهم وحدهم يمثلون الجنس البشري، وإذا ما تكلموا عن الغير فإنهم يتكلمون عنهم باعتبارهم أجدادا، بمعنى أن الهوية الثقافية لا تطرح إلا في حالة الاحتكاك بهوية أخرى كدفاع ذاتي درءً للخطر الذي يهدد بفقدانها.

فالإنسان دائما في حاجة إلى إثبات انتمائه وإبراز هويته ورفض كل ما من شأنه أن يشكل خطرا عليه بل يعمد إلى تحطيمه في أحيان كثيرة، وهذا ما أكده أريكسون من خلال أبحاثه وقد بين «الحاجة إلى الأبعاد التي تعرف كالميل أو حتى تدمير أولئك الذين يبدو تواجدهم خطرا على الذات» هنا يحتاج الإنسان دائما إلى إثبات انتمائه إلى مجموعة تملك هوية خاصة، بما تمتد جذورها في التاريخ أو في أصل يشتركون فيه كاللغة والعرق والدين وحتى في الموقع الجغرافي، ولكن ليس من الضروري أن تجتمع كل هذه العوامل.

ومما يدعم هذه الهوية أن تكون في وعي أفرادها، فالتاريخ الموحد ليس من الضروري أن يكون حقيقيا فقد يكون مستمدا من أسطورة، لكن الأفراد يعيشونه كحقيقة، إذا كانت الهوية الثقافية تستمد تعريفها من الهوية الأثنية والتي تتطلب كما سبق وأن أشرنا إليه تاريخا وأصلا مشتركا بالإضافة إلى لغة موحدة ودين موحد، أي إرثا ثقافيا موحدا[5].

ب – الهوية الفردية:

أما الهوية الفردية فإنها تعتمد أساسا على المميزات "الجسدية" التي تميز كل كائن بشري عن الآخر من بين ملايين البشر، وأبرز مثال على ذلك بصمات الأصابع التي تؤكد هذا الإختلاف وتحدده.

ج – الهوية الوطنية:

أما الهوية الوطنية فإنها انتساب شعب متميز أو أمة إلى وطن من الأوطان بخصائص هويته المتميزة[6] التي هي مجموع الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليه، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى.

والحقّ أن الأساس في تكوين عناصر الأمة بهوية متميزة يتمثل فيما يأتي:

أ - مجموعة من الناس متجانسون لهم رقعة من الأرض تجمعهم فوق أديمها متخذين منها وطنا لهم.

ب - علاقات تنظم هؤلاء الناس وتتكون تدريجيا مع الثبات والاستمرار، ليس حتما أن يكون هؤلاء الناس من جنس واحد أو قبيلة واحدة لكي يشكلوا أمة، وأوضح مثال على ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، الهند،... إلخ.

أما عن الأرض التي يعيشون عليها فليس شرطا أن تكون ذات مناخ واحد أو تضاريس واحدة فقد تكون مختلفة في كل هذه الخصائص الطبيعية كالجزائر مثلا ولكنها تشكل وطنا واحدا لهذا الشعب يهب صفا واحدا للذود عن وطنه في كل الأحوال وهو الشعور المشترك بحب الوطن[7].

أما أهم عامل في هذا المضمار هو العلاقات التي تنظم أفراد الأمة، فهي علاقات ذات دوائر متداخلة، فثمة علاقات تنظم الخلية الأساسية في المجتمع وهي الأسرة، وأخرى تنظم أفراد الأمة كمحكومين بالجهاز الحاكم، كما أنها علاقات ذات ألوان متعددة.

فالتاريخ المشترك حافز للتعاون والتعاضد في السراء والضراء، وكذلك لغة التخاطب والديانة المشتركة والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فهذه العلاقات الرابطة لأفراد الأمة على اختلافهم، إنما هي امتداد ذو صيغة سلوكية عملية لمنظومة من القناعات متأسسة في أذهانهم فيها شرح للوجود عامة وللإنسان في قيمته وعلاقته بالكون ومصيره.

وقد تكون هذه المنظومة نتيجة لاجتهاد العقل البشري، أو متأتية من مصدر غيبي ولكنها على أية حال تعتبر هي الناظم الحقيقي للأفراد في كيان الأمة.

مما سبق يتضح أن هوية الأمة المميزة تتشكل من ثلاثة عناصر أساسية هي: الرقعة الجغرافية، نمط العلاقات القائمة بين الأفراد، والمنطلق الأيديولوجي الذي أنتج ذلك النمط.

فهذه العناصر هي التي تعطي لكل أمة حقيقتها التي تتميز بها عن سائر الأمم الأخرى ويكون بها تشخصها في الواقع وسيرورتها في التاريخ[8]. ماضيا وحاضرا ومستقبلا والمنظومة الأيديولوجية يكتسبها الأفراد بدعوة دينية أو فلسفية أو قانونية أو قيمية أو بترسب وراثي تاريخي لأخيلة وأساطير الأجداد، وعلى أساس تلك المنظومة الأيديولوجية توضع أنماط العلاقات التي تربط الأفراد ومن ثمة فإن هوية الأمة قابلة للتغير والتبدل بشكل جزئي أو قريب من الكلي نتيجة عوامل قد تكون داخلية من الأمة نفسها أو خارجية متسلطة عليها، وحينما يصل هذا التبدّل والتغير حدا معينا في تفكك هوية أمة ما، فإن تلك الأمة تؤول إلى الزوال إما بالتلاشي وإما بنشوء أمة أخرى على أنقاضها، وكم من أمم في التاريخ آلت إلى الإنقراض ولم تبق إلا معالمها الحضارية شاهدة عليها، وكم من جماعة تعاقبت على أرضها أمم كثيرة مختلفة ولم تذيبها في كيانها أو تزلها من الوجود.

والحق أن مشكل الهوية الثقافية يطرح بحدة في الهوية الفردية، فالفرد الذي ينتمي إلى ثقافة معينة يشعر أنها منقوصة القيمة إذا تعرضت إلى استعمار أجنبي (كحالة الجزائر مثلا

1830 - 1962 م) حيث عمل المستعمر على بث الشعور بالنقص أو الدونية في نفوس المستعمَرين، بهدف إحداث تشويش وشكوك في الهوية، فيحاولون تقمص هوية الآخر أو دبلجتهم، فيفقدون هويتهم الثقافية، وفي هذه الحالة يبرز الكثير من الظواهر الدفاعية، فإما النكوص والانغلاق وتبنّي استراتيجية دفاعية محافظة تنادي بالمحافظة على ميراث الأجداد والميراث الثقافي، حيث يستمد المجتمع قوته من السجل التقليدي "أي تحنيط الثقافة والهوية الوطنيين" إلى أجل غير معلوم وإما التفتح على الغير مع مقاومة عوامل الاندماج، وفي هذا الإطار نعالج مفهوم الهوية الوطنية والمغاربية عند المفكر الجزائري عبد الحميد بن باديس. ولكن قبل ذلك نطرح السؤال الآتي ونحاول الإجابة عنه بالإستناد إلى بعض الأدلة التاريخية.

لماذا ظهرت أربع هويات في البلاد المغاربية خلال العصور الحديثة؟

لقد كانت أقطار المغرب العربي منذ أقدم العصور حتى سنة 1830 تشكل بلدا واحدا وهوية واحدة من طنجة غربا إلى برقة شرقا لا سيما منذ القرن الأول الهجري، السابع الميلادي ليس لها حدود جغرافية أو سياسية أو ثقافية معينة إلا في بعض الظروف الاستثنائية، فقد كانت تظهر من حين لآخر دولة في الجزائر أو في تونس أو في ليبيا أو في المغرب لم تكن ذات حدود معلومة خاصة ببلد من هذه البلدان الأربعة وإنما كانت تضم كل هذه البلدان تحت قيادة واحدة، ومن ثمة فقد كانت الهوية واحدة سواء في مرحلة الاستعمار القديم أو في فترة الحضارة العربية الإسلامية، وحتى في ظل الوجود العثماني الذي تبلورت فيه الحدود السياسية المغاربية لكل بلد، فإن الهوية المغاربية لم تكن تعاني من القهر والإقصاء بل فقد ظلت تحافظ على مكوناتها الأساسية مع ظهور شيء من التمايز بين هوية سكان الأقاليم الأربعة ولكن مع نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي بدأت بلاد المغرب الكبير تتعرض إلى هجمة شرسة من قبل الدول الأوروبية الناهضة فاستولت ملكية "لوي فيليب" بفرنسا على الجزائر في صيف 1830 وأخضعتها إلى سطوتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وتوالى بعد ذلك سقوط البلدان المغاربية الواحدة تلو الأخرى تحت النير الاستعماري الأوروبي حتى القرن العشرين، وخلال هذه المرحلة الاستعمارية بدأت الهوية الوطنية والهوية المغاربية تتدفق من كمونها في شكل مبادئ سياسية حديثة تعبر عن نفسها بوضوح في صراعها مع هوية الأمة المستعمرة وبرزت إلى الوجود بعض الزعامات الوطنية والمغاربية تحمل لواء الدفاع عن الهويتين معا.

فكان هناك الأمير عبد القادر وحمدان بن عثمان خوجة وعبد الحميد بن باديس في الجزائر وعبد العزيز الثعالبي وعلي باش حمبا والبشير صفر في تونس وعبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي في المغرب الأقصى ومحمد إدريس السنوسي وسيد الشهداء عمر المختار في ليبيا.

وهكذا صارت لبلدان المغرب الكبير أربع هويات وطنية وهوية مغاربية دعت إلى بعثها وتطويرها وبلورتها، وقد ظلت هذه الشخصيات وغيرها في مقاومة مستميتة لمحاولات المسخ

والتهديم لأسس الهوية المغاربية من قبل الدول الاستعمارية وأعني بها فرنسا وإيطاليا.

أولا: الهوية الجزائرية:

خاض ابن باديس معارك قلمية عنيفة ضد خصومه، دفاعا عن الهوية الجزائرية التي أرادها أن تكون متميزة ومنفصلة عن فرنسا، فعندما كتب "فرحات عباس 1899 - 1986 م" مقالا في جريدة " الوفاق الفرنسي الإسلامي" «L'ENTENTE FRANCO MUSULMAN» بقسنطينة في شهر شباط (فبراير) سنة 1936 م بعنوان "فرنسا هي أنا" «LA FRANCE C'EST MOI» دعا فيه إلى ترك البحث عن الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن الجزائري في رأيه آنذاك لم يكن شيئًا مذكورا، فرد عليه المفكر الجزائري ابن باديس بمقال صدر له في مجلة "الشهاب" في شهر نيسان، أفريل 1936 م بعنوان "كلمة صريحة"، كان له أثرا بليغا في نفوس خصومه من الفرنسيين والجزائريين على حد سواء، وكانت أول مرة كما يقول: «جوبهت فيها الحكومة وَجُوبِهَ فيها رجال السياسة بحقيقة ناصعة هي عين الحقيقة التي تعتقدها الأمة، وفيها بيان لعواطف وإحساس وشعور الأغلبية المطلقة من سكان هذا الوطن الجزائري»[9].

وأكد ابن باديس موقفه الثابت تجاه مسألة الهوية الجزائرية ورفض الجنسية الفرنسية وثبت فكرة التمسك بالقومية العربية قائلا: «فأما الذين ظهرت سريرتهم وخلصت نيتهم فقد حبذوا خطتنا وشكروا لنا صراحتنا وحمدوا لنا هذا الموقف الذي وقفناه ضد محاولات التجنيس الخائبة ومحاولات هدم القومية واللغة والدين المجرمة»[10]، «وأوضح أن الجزائريين يستطيعون ويريدون أن يحافظو على ذاتيتهم الخاصة وما فيها من مميزات اللغة والدين والأخلاق والثقافة ولا يريدون بأي حال من الأحوال ولا يستطيعون أن ينسلخوا طوعا واختيارا أو كرها وجبرا عن تلك الذاتية وما فيها من مميزات وما لها من حقوق»[11].

أما الذين أنكروا وجود هذه الأمة وما لها من مجد وتاريخ وروابط تجعل منها أمة متحدة ومتجانسة مثل أكثر الأمم تجانسا واتحادا في كل المعمورة، فأولئك - كما يقول ابن باديس - أصابهم الذعر من مقاله الذي أوضح فيه بجلاء خصائص الأمة الجزائرية وعناصر شخصيتها وانطلق في الرد عما قاله خصومه من مفهوم الهوية الوطنية للشعب الجزائري، والتي لا تخرج في جملتها وتفصيلها عن المقومات الثقافية والحضارية والتاريخية للشعب الجزائري، الذي هو جزء من المجتمع العربي الكبير والذي نطلق عليه اسم "الأمة العربية".

والمجتمع الجزائري في تصوره وإن كان له مميزاته النوعية الضيقة الخاصة به بحكم بعض الظروف والعوامل التاريخية والجغرافية والسياسية، فإنه يشكل حلقة متصلة في سلسلة متكاملة الحلقات مترابطة العرى تاريخيا ودينيا ولغويا، وبالتالي ثقافيا وحضاريا مع المغرب العربي والأمة العربية قاطبة[12]، ذلك أن سكان الجزائر القدامى اعتنقوا العقيدة الإسلامية التي جاء بها العرب الفاتحون عن طواعية واقتناع - حسب ابن باديس - وتمسكوا بها ونشروها في أوطان أخرى وانصهر العرب والبربر في المجتمع الجديد[13].

ولقد أجاب ابن باديس عن جملة من الأسئلة كانت تطرح عليه من قبل دعاة الاندماج

مع فرنسا، حول مفهوم الهوية الجزائرية وإلى أي مدى يمكن أن تضرب بجذورها في أعماق التاريخ فعن سؤال يتعلق بحدود الجزائر في القرن العشرين ما إذا كانت هي نفسها منذ مائة عام قال: «ونحن نجيبه (أي السائل) لنفرض أن حدود الجزائر لم ترسم على صفتها الحالية شرقا وغربا إلا منذ نحو مائة عام، فهل له أن يجيبنا متى كانت حدود فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا والمجر ورومانيا ويوغسلافيا واليونان وبلغاريا كما هي عليه الآن؟ وهل هي لم تتغير المرات العديدة خلال هذه المائة عام؟[14]

وبهذه الحقائق والبراهين ظل ابن باديس يحاجج خصوم الهوية الجزائرية حتى وفاته سنة 1940 م ويؤكد على المقومات التي تعطيها وحدتها الجغرافية والتاريخية واللغوية والدينية والفكرية وعلى أن المقومات التي تعطيها صفة الهوية المتميّزة هي أكثر انسجاما وترابطا من مقومات عدد كبير من الدول الأوروبية على سبيل المثال، مكررا قوله: «تستطيع الظروف أن تكيفنا ولكنها لا تستطيع بإذن الله أن تزيلنا أو تُقْهِرَنا».

والحق أن هذا المفكر الجزائري وإن كان قد لمس كل موضوعات عصره وكتب فيها وأعطى رأيه بخصوصها، فإن جهده كان منصبا بشكل كبير حول الهوية الجزائرية وإبراز خصائصها المتميزة مما جعله يخلف في المجال الفكري تراثا هائلا في هذا المنظور.

ثانيا: الهوية المغاربية:

أما الهوية المغاربية كما يرى ابن باديس فإنها تكمن في الوحدة التاريخية والدينية واللغوية والثقافية والفكرية والجغرافية.

أما الهوية السياسية فقد كانت غائبة في عهده بسبب خضوع البلاد المغاربية إلى الاستعمار الأجنبي، وقد قال في هذا السياق: «الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقتها مع غيرها من الأمم، وتتعاقد على تنفيذها، وتكون كلها في تنفيذها والدفاع عنها يدا واحدة، فهي مقتدرة في الدفاع عنها كما كانت حرة في وضعها، أما الأمم المغلوبة على أمرها فلا تستطيع أن تضع أمرا لنفسها، فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها، ولا تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها، وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها فكيف يُعتمد عليها في خارجيتها؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم غير ممكنة ولا معقولة ولا مقبولة... إن كل شعب من شعوب هذا الشمال مستقل تمام الاستقلال بخططه في سياسته، لا نعرف هيئة منهم تتصل بهيئته، مع عمل الجميع على تغذية الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة...»[15].

أما الوحدة الأدبية والقومية كما يرى ابن باديس فإنها متحققة بينها لا محالة: اللغة، الجنس، التاريخ، الآلام، الآمال[16].

والحق أن الهوية السياسية في واقع ابن باديس كانت مستحيلة بين بلدان المغرب العربي ولكنها ستكتمل مستقبلا إذا تغيرت الظروف. وقد وقف المفكر الجزائري إلى جانب "شكيب أرسلان" فيما كتبه حول الوحدة الدينية والأدبية والتاريخية للبلدان المغاربية واستبعاد الوحدة السياسية بينها في ظل الاستعمار الأوروبي، وذلك في المناظرة التي جرت بينه وبين الباروني سنة 1938.

لعل أول ما يبدأ به الباحث في الفكر الباديسي المغاربي هي تلك الرسالة العلمية التي كتبها سنة 1922 م بعنوان "رسالة جواب سؤال عن سوء مقال" ردّ فيها على المتصوف "أحمد بن عليوة" شيخ الطريقة العليوية بمدينة مستغانم، وقبل نشرها أراد أن يكون لها بعدا علميا مغاربيا، فبعث بها إلى عشرة علماء في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى لتقييمها وإعطاء الرأي فيها وهم:

1 - أستاذه الشيخ "محمد النخلي زعيم النهضة الفكرية بجامع الزيتونة.

2 - الشيخ "بلحسن النجار" الباحث الأصولي المفتي المالكي.

3 - أستاذه الشيخ "محمد الطاهر بن عاشور" المحقق النقاد عميد مجلس الشورى المالكي وقاضي الجماعة.

4 - الشيخ "محمد الصادق النيفر" المحقق الفقيه النوازلي قاضي الجماعة.

5 - الشيخ "معاوية التميمي" المشارك الأدبي المدرس بالزيتونة. وكل هؤلاء العلماء الأعلام كانوا في البلاد التونسية.

6 - الشيخ "شعيب بن علي بن عبد اللّه" الفقيه المشارك القاضي بتلمسان.

7 - الشيخ "محمد المولود بن الموهوب الألمعي" المفكر المفتي المالكي، المدرس بقسنطينة.

8 - الشيخ "العابد بن أحمد بن سودة القريشي"، خطيب المسجد الإدريسي بفاس وقاضي الجديدة.

9 - الشيخ "عبد القادر بن محمد بن عبد القادر السودي القريشي" المحدث المدرسي بالقرويين.

10 - محمد بن العربي، المدرس بالقرويين[17].

إن هذا الاستفتاء الذي دعا إليه ابن باديس لتثمين هذه الرسالة من قبل علماء المغرب العربي إنما يجسد المطامح الوحدوية، التي كان يؤمن بها ويدعو إليها في المجالس العلمية والمقالات السياسية والندوات الصِحَافية والمراسلات الشخصية بينه وبين زعماء المغرب العربي، فهو يريد أن يشرك كل علماء هذا الشمال في القضايا المصيرية التي تهم كل السكان المسلمين في هذه المنطقة العربية.

كان المفكر الجزائري يحاول الدخول إلى صميم الوحدة المغاربية من خلال الكتابة عن كل رجالها بدون تمييز من "عمر المختار" إلى "عبد العزيز الثعالبي" و"البشير صفر"، إلى الأمير "خالد الجزائري" إلى زعيم الريف المغربي الأمير "عبد الكريم الخطابي"... وهلم جرّا.

لقد ظل ابن باديس يبحث في تاريخ المغرب حتى وصل إلى نقطة اللارجوع في وحدة الفكر والثقافة والهوية المغاربية. إذ كان يعتبر نفسه جنديا من جنود الوحدة المغاربية والقومية العربية والحضارة الإسلامية، فلا يكاد يمر أي حدث في الساحة المغاربية من الداخل أو الخارج إلا ونراه مهنئا أو متضامنا أو محتجا أو معلقا أو معزيًا حسب المناسبة.

إنه لم يكن يؤمن بالقطرية الضيقة في هذا الشمال، بل فقد كان يعتبر هذه البلاد وطنا واحدا وشعبا واحدا. «نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي منّا على بال، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها، وأوصلنا إليها النفع

والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص، وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآدابا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة... إلخ»[18].

فهو إذن يقرّ في وقته بالوحدة اللغوية والوحدة الدينية والوحدة الأخلاقية والتاريخية والمصير المشترك لبلدان المغرب العربي، بالرغم من أن هذه البلدان كانت واقعة تحت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية التي كانت تعمل على دمج سكان الشمال الإفريقي في المجتمع الفرنسي.

إن المصلح الجزائري رغم سيف الرقابة المسلط على الرؤوس والأقلام في الجزائر في تلك المرحلة، فقد كان يتعاطف مع الإخوة في المغرب وتونس وليبيا سواء كانت المناسبة سارة أو أليمة ولا يضيع فرصة للاجتماع بزعماء هذه البلدان وتدارس أمورهم بينهم.

ومن المناسبات الجديرة بالذكر في هذا السياق مناسبة وفاة الإمام المصلح الوزير الكبير "أبو شعيب الدكالي" سنة 1937 م.

لقد حاول ابن باديس أن يحضر حفل تأبين أربعينية وفاة هذا الرجل، غير أن الإدارة الاستعمارية قد منعته من الدخول إلى المغرب الأقصى، فطلب الرخصة المرة الأولى فَوُضِع طلبه سلة المهملات، فأعاد الكرة مرة ثانية فَأُجيب بالرفض لأن الحكومة المغربية تمانع في دخوله إلى المغرب. ومما جاء في تعليق ابن باديس حول هذا الموضوع في مقاله الصادر في مجلة الشهاب في شهر سبتمبر 1937 م[19] بعنوان "الاستعمار يحاول قطع الصلة بين الإخوان" قوله:

«لما مات الإمام المصلح العلامة الحافظ، الوزير الكبير مولانا أبو شعيب الدكالي فخر الأفارقة والمغرب الأقصى، كان من أقل حقوقه علينا أن قامت جماعة من إخواننا المغاربة بإقامة حفلة تأبين في أربعين وفاته، ودعت صاحب هذه المجلة (أي الشهاب) لحضور هذه الحفلة باسم رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فلبى الدعوة ووجه للحكومة طلب رخصة السفر... فلم تأذن في دخوله للمملكة المغربية. إزاء هذا ما في وسعنا إلا التخلف والاعتذار لإخواننا المغاربة، ثم الاحتجاج على هذه الحكومة الاستعمارية، التي تحاول بمثل هذا العمل أن تقطع الصلة بين الذين ساقتهم الأقدار إلى يدها وهي ما تزيده بهذا إلا ارتباطًا وشدة».

ويلاحظ من هذا التعليق أن ابن باديس كان ينساق هو الآخر أحيانا في النظرية السائدة لدى أهل الجبرية من أن الاستعمار هو شيء مقدر، وليس نتيجة للصراع الحضاري بين الشرق والغرب وربما كان يعتمد هذه الصياغة للتخفيف من نقده للإدارة الاستعمارية، كتمويه له ولجمعيته كما تعود أن يكتب منذ سنة 1925 م.

فعندما اتهمت الدوائر الاستعمارية الفرنسية بلدان الشمال الإفريقي سنة 1937[20] بالعمالة للنازية والفاشية ردّ في شهر تشرين الثاني، نوفمبر من نفس العام على هذه الدوائر قائلا: "... وأنا على يقين تام من أن الأوطان الإفريقية الثلاثة التي تهم فرنسا لم تتصل يوما بيد أجنبية، لا من موسكو، ولا من روما، ولا من برلين، وأعرف عن نفسي وعن رجال هذا الشمال الإفريقي إخواني، أننا نأبى أن نكون آلة في يد أي كان من الأمم. إباءً وترفعا يمليها علينا عزة الإسلام وشيم العروبة».

وقد أنكر في هذا السياق خضوع الشعب في بلدان المغرب العربي للشيوعية والنازية والفاشية، أما بخصوص تأثير الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية في بلدان المغرب فإن ابن باديس قد أكد قوة هذا الاتحاد ومتانته من الناحية الروحية والأدبية والأخوية والتاريخية والمصيرية كما سلف الذكر، واستبعد وقوع اتحاد سياسي عملي في وقته نظرا للسيطرة الاستعمارية على بلدان الشمال الإفريقي[21] كما سلف الذكر.

ولقد كان المصلح الجزائري يتحدث من منبر صحيفته "الشهاب" باسمه الخاص وباسم زعماء المغرب العربي قاطبة في بعض الأحيان، ولم يكن ذلك يجد رفضا أو استنكارا من قبل الشخصيات القيادية في كل من تونس والمغرب وليبيا، بل فقد كانوا يؤازرونه ويعززون مواقعه في الدفاع عن الشخصية المغاربية، أمام المتاجرين بقضايا الشعب المغاربي والمحاولات الاستعمارية للتفريق بين أبناء هذه الأقطار الأربعة، ومن أبرز المناسبات التي تؤكد الهوية المغاربية عند المصلح الجزائري حادثة تعرضه إلى محاولة إغتيال سنة 1926 م من قبل أتباع الطريقة العليوية، فبعد نجاة الشيخ عبد الحميد بن باديس من هذه الجناية المجرمة، إنهالت عليه البرقيات والرسائل من جميع جهات القطر الجزائري ومن تونس الشقيقة بالتهاني على سلامته والاستياء من توحش الجاني العليوي، وكان رده على الإخوة في تونس: «وأشكر... الأمة التونسية العزيزة التي لا يفصلنا عنها غير الاعتبارات السياسية من فاصِل في الوجود...».

إن ابن باديس إذن لم يكن يؤمن بالحدود السياسية التي كانت تفصل الشعب العربي في ليبيا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى، ويعتبرها حدود وهمية أرادها الاستعمار لهذه الأقطار الشقيقة.

وفي كلمة له ودع بها الأمة التونسية سنة 1937 م، وهو عائد منها إلى الجزائر أشاد فيها بالتلاحم الأخوي العاطفي بين سكان البلدان المغاربية الأربعة، واعتبر الحفاوة التي لقيها في تونس هي حفاوة وتقدير للمبدأ الذي دعا إليه في خطبه: «... وهو الإحتفاظ بالذات العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي كله وبوحدة أقطاره الأربعة، طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش، في الحاضر والمستقبل مثلما هي ثابتة في الماضي وأفضل الود والإكرام ما كان للمبادئ الخالدة»[22].

إن أكبر مناسبة عبر فيها المفكر الجزائري عن الهوية المغاربية الموحدة كانت أثناء زيارته لتونس سنة 1937 م للمشاركة في إحياء ذكرى وفاة الأستاذ "البشير صفر" حيث قال: في خطبة أمام جمع غفير من الأساتذة والطلبة الزيتونيين وغيرهم:

«حقا إن لتونس هوى روحيا، بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب، لا أجد مثلها إلا في ربوعها... إن الروابط عديدة بين تونس والجزائر، بين المغرب العربي بصفة عامة، طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، كالروابط العلمية والروابط السياسية التي داقت بها هذه الأقطار حلاوة الاستقلال تحت ظل الإسلام والتاريخ يشهد بذلك»[23].

وقد أكد هذا الاتجاه الوحدوي المغاربي عندما قال أيضا: «إني أؤمن بأن هذا الشمال الإفريقي لا ينهض إلا بتضامنه مع بعضه بعضا،

لكن إذا تحدثت عن الجزائر فإنما أتحدث عن جزء من كل، وأذكر عن الأخ ما يسر إخوانه... وأن الجزائر لم تقصر عن أخواتها بلاد الشمال الإفريقي وأن عواصمها الزاهرة شاهدة بذلك»[24].

لقد كان ابن باديس يتتبع كل القضايا المغاربية سواء كان ذلك في المغرب الأقصى أو في تونس أو في ليبيا، كما أنه كان يعتبر البلدان الأربعة بلدا واحدا، ومن أهم هذه القضايا التي كان يتابعها ويدلي برأيه فيها، أيضا مسألة التربية والتعليم.

كان ينتقد برامج التعليم العقيمة في هذه الربوع الإفريقية، لا سيما في الجامعتين العريقتين الزيتونة والقرويين، ولكن الرجل لم يتوقف عند النقد، بل فقد كان يقدم البديل لما كان ينتقده ويثور عليه ويعتبر الإصلاح في تونس هو إصلاح للجزائر والمغرب وليبيا، والجمود والتخلف فيها هو جمود وتخلف هذه الأقطار كلها.

لقد قدم سنة 1931 برنامج متكامل للمؤسسة الزيتونية لتغير المناهج والمواد العلمية، لكي تتماشى مع تطور العصر، باعتبار أن جامعة الزيتونة مؤسسة مغاربية يقصدها الطلبة من كل بلدان المغرب العربي، لتلقي العلوم الدينية والقانونية والأدبية والاجتماعية، وفي الوقت الذي كان فيه المصلح الجزائري يساهم في إصلاح برامج التعليم العربي في جامعة الزيتونة، فقد كان يحتج باسم جمعية العلماء الجزائريين على تدخل الإقامة الفرنسية العامة في شؤون الطلبة الزيتونيين وقد حفظت لنا جريدة البصائر جملة من برقيات الإحتجاج التي كان يبعث بها إلى وزير الخارجية بباريس، والمقيم العام بتونس يطلب منهما أن يتدخلا لإنهاء الأزمة التي وقعت بين الطلبة، بسبب الإجراءات الإدارية الفرنسية والتي أقلقت كما يقول ابن باديس: «جميع المسلمين عموما ومسلمي شمال إفريقيا خصوصا...»[25].

وفي الوقت نفسه بعث ببرقية احتجاج أخرى باسم جمعية العلماء إلى وزير الخارجية الفرنسية بباريس والمقيم العام بالرباط، استنكر فيها تعطيل حكومة "مراكش" الاحتفال بالمولد النبوي الذي يقيمه المسلمون كل سنة هجرية، وهدد بأن تكرار مثل هذه الإجراءات ستقضي على العواطف الإسلامية تجاه فرنسا[26].

والحق أن المفكر الجزائري كان يدافع عن كل بلدان المغرب العربي كما لو أنه كان ممثلا لكل الشرائح الاجتماعية في هذه الأقطار، ونراه سنة 1937 م يقول في هذا السياق «حيثما توجهنا إلى ناحية من نواحي التاريخ وجدنا هذا المغرب العربي طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش، يرتبط بروابط متينة روحية ومادية تتجلى بها وحدته للعيان...»[27].

وكان يلوم المؤرخين والكتاب عموما في المشرق العربي على تجاهلهم الشمال الإفريقي، وهم إذا ذكروه فكأنما يذكرون قطعة من أواسط إفريقيا ومجاهلها، ويشير بذلك خاصة إلى كتاب "أحمد أمين" "ضحى الإسلام" و"ظهور الإسلام".

ولكن ابن باديس كان يعول كثيرا على أبناء المغرب العربي من رجال السيف والقلم الذين كانوا يمثلونه خير تمثيل في بلاد المشرق.

ويذكر في هذا الصدد الأمير عبد القادر الجزائري، الذي توفي بدمشق سنة 1883 م وسليمان باشا الباروني الطرابلسي، والشيخ الطاهر الجزائري في بلاد الشام، والشيخ عبد

العزيز الثعالبي زعيم تونس، والشيخ حسين خضر الجزائري التونسي، والشيخ تقي الدين الهلالي، لقد كان هؤلاء الأعلام كما يرى ابن باديس: «يرفعون اسم المغرب العربي في المشرق ويمثلون وحدة هذا المغرب...»[28].

لقد كان المفكر الجزائري يشيد بفضل الأساتذة والشيوخ المغاربيين الذين تلقى العلم على أيديهم سواء في جامع الزيتونة أو من خلال مؤلفاتهم أو مقالاتهم الصحافية، ويذكرهم في كل المحافل العلمية التي يكون فيها ذكر الكرام اعترافا لهم بالجميل.

وقد قال في الكلمة التي ألقاها على جمع غفير من العلماء والأدباء والطلبة سنة 1938 م بمناسبة ختمه تفسير القرآن الكريم بقسنطينة «أنا رجل أشعر بكل ماله أثر في حياتي، وبكل من له يد في تكويني... إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة... ثم لمشائخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة، ولم يبخسوا استعدادي حقه، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية وهما... الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني والشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة... فالأول أوصاني وشدد علي أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، والثاني... إنني كنت متأثرا بأساليب المفسرين... وقد ذكرت يوما للشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطرمة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح...»[29].

لقد حاول ابن باديس أن يوحد الفكر المغاربي من خلال مجلته الشهاب التي كانت منبرا لأقلام الكتاب الجزائريين والتونسيين والمغاربة على حد سواء، والتي كان يرسلها إلى كل بلدان المغرب والمشرق العربيين. ونظرا لأفكارها الوحدوية والتحررية فقد منعت من الدخول إلى المغرب الأقصى وحرم منها الكثير من القراء الذين كانوا يتتبعون خطواتها بكل شغف. لا سيما وأن الصحافة في المغرب الأقصى ظهرت متأخرة عن الجزائر وتونس.

وجملة القول أن منطلقات ابن باديس في الفكر والثقافة والهوية، كانت منطلقات مغاربية في الأصل والنشأة والتطور والنضج، ولسنا نبالغ إذا قلنا أنه كان أبرز رجال عصره في هذا المنظور فهو الذي أعاد العلاقات الثقافية والروحية والتاريخية بين أقطار المغرب العربي الثلاثة والتي انقطعت منذ سقوط الجزائر بين مخالب الإمبريالية الفرنسية المتنامية في ذلك الوقت، بفتح باب الهجرة العلمية من جديد إلى الزيتونة والقرويين والتذكير في كتاباته بالملاحم البطولية والمنجزات الحضرية المشتركة بين أبناء المغرب العربي منذ فجر التاريخ حتى عصره.

الهوامش

(1) - م، روزنتال ي. بودين: الموسوعة الفلسفية السوفياتية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط 2: 1980 م، ص 564.

(2) - علي حرب، خطاب الهوية، سيرة فكرية، دار الفنون الأدبية: 1996 م ص 140.

(3) - عبد اللّه بوقرن: الهوية في الفكر الجزائري الحديث، قسم الفلسفة، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة: 1999، ص 1، (رسالة ماجستير غير منشورة).

(4) - C. LIVIS STRAMES. RACCE ET HISTOIR GORTHIER. Paris: 1961. p. 21.

(5) - ABOU SALIM: L'IDENTITE CULTUREL RELATION ET RETHIQUES. p. 57.

(6) - أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع: 1996، ص 20.

(7) - حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي: الجزائر كفاح شعب ومستقبل أمة، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، ص 35.

(8) - أحمد بن النعمان، المرجع السابق، ص: 41 - 42 -67 - 68.

(9) - عبد الحميد بن باديس "حول كلمتنا الصريحة"، "الشهاب"، الجزء 1، المجلد 2، قسنطينة، الجزائر: غرة محرم 1355 هـ/ أبريل 1936، ص 143.

(10) - المصدر نفسه: ص 144.

(11) - المصدر نفسه: ص 140.

(12) - أحمد بن النعمان: سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجية النفسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1988 م، ص 297.

(13) - ابن باديس: "ما جمعته يد اللّه لا تفرقه يد الشيطان"، "الشهاب"، ج 11، قسنطينة، الجزائر، غرة ذي القعدة، فيفري: 1936 م ص 605.

(14) - عبد الحميد بن باديس "حول كلمتنا الصريحة" ص 145.

(15) - عبد الحميد بن باديس "مسألة عظيمة بين رجلين عظيمين": مجلة "الشهاب"، المجلد 13، الجزء 11، قسنطينة، الجزائر، غرة ذي القعدة 1356 هـ/ جانفي: 1938 م، ص 6.

(16) - المصدر نفسه: ص 19.

(17) - عبد الحميد بن باديس: "رسالة جواب سؤال عن سوء مقال" كتيب صغير 17 صفحة، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة بدون تاريخ.

(18) - عبد الحميد بن باديس: "لمن أعيش"، "الشهاب"، ج 10، م 12، المطبعة الإسلامية الجزائرية، قسنطينة، شوال 1355 هـ، جانفي: 1937، ص 424 - 428.

(19) - عبد الحميد بن باديس: "الاستعمار يحاول قطع الصلة بين الإخوان"، "الشهاب"، الجزء 7، م 13، قسنطينة، رجب 1356 هـ الموافق لسبتمبر 1937، ص 341.

(20) - عبد الحميد بن باديس "الشمال الإفريقي، كيف يجب أن يعالج"، "الشهاب"، ج 9، م 13، نوفمبر 1356 هـ/ 1937 م، ص 398 - 406.

(21) - المصدر نفسه: ص 380.

(22) - عبد الحميد بن باديس: "الشهاب"، ج 5، م 13، جمادى الأولى، جويلية، 1356 هـ/ 1937 م ص 238.

(23) - المصدر نفسه: ص 225، 228.

(24) - عبد الحميد بن باديس: "البصائر"، السنة الثانية، العدد 71، ربيع الثاني 1356 هـ/ 18 جوان 1937، ص 4.

(25) - المصدر نفسه: العدد 76، 14 جمادى الأولى 1356 هـ/ 1937 م، ص 3. 2. 1.

(26) - المصدر نفسه: ص 12.

(27) - عبد الحميد بن باديس: "الشهاب"، ج 5، م 13، جمادى الأولى 1356 هـ/ جويلية 1937 من ص 220، 225.

(28) - المكان نفسه.

(29) - المصدر نفسه: ص 288، 291.